

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

تبين لي أثناء عملي في المجلدات المتقدمة أنه على الرغم من الأهمية العظمي لمعركة حطين، ان اخفاق الحملة الثالثة، شكل الحدث الفيصل بالنسبة لجميع وقائع الحروب الصليبية، لأن الذي توفر لهذه الحملة لم يتوفر لسواها، لذلك سعيْتُ نحو الحصول على كل ماكتب عنها في الأصول، لاسيما غير العربية، ولم يكن هذا بالأمر الهين، وكان كل الذي توفر لي آنذاك حولها هو ذيل تاريخ وليم الصوري.

وقمت في شتاء العام الماضي برحلة بحث علمي أخذتني إلى عدد من المكتبات العالمية والعربية فحصلتُ من لندن على عدد من الأصول ومن مكتبة الكونغرس على خمسة أصول نادرة كنتُ بأمرس الحاجة إليها، وهكذا توفر لدي ماكنت بحاجة إليه من مصادر غربية وعربية، منها مواد هذا المجلد الذي أقدم له، وتعلق جلّها بالحملة الثانية، ومواد ثرية وشعرية عملاقة تعلقت بالحملة الثالثة، ثم مواد أخرى عن بقية الحملات.

وقمتُ وأنا أتولى إعداد الفهارس للمجلدات التي طبعت وكان عددها خمس وعشرون والتي دعيتها باسم الحلقة الأولى من الموسوعة، بإعداد هذا المجلد، الذي يشكل الجزء الأول من الحلقة الثانية.

وقوام خطتي الآن أن أقدم أولاً الأصول الأوربية حتى نهاية الحملة

السابعة المخفقة، ثم سأعقب ذلك بتقديم أعمال الرحالة الذين جاءوا من أوروبا أثناء الحروب الصليبية، وسيأتي إثر هذا كل من كتابي: «الأسرار» و«استرداد الأراضي المقدسة» اللذان كتبا بعد تحرير عكا وانتهاء الوجود الفرنجي في بلاد الشام.

وبعد الفراغ من هذا العمل سألتفت نحو المصادر العربية وكلها جديد وهام وغني لاسيما مواد البدر العيني في «عقد الجمان» التي جاءت في عدة آلاف من الصفحات، هذا وسألحق الموسوعة بعدد من الأجزاء حول تاريخ المغول والعلاقات المغولية الصليبية، وفي الحقيقة إن مجلد العلاقات جاهز للطباعة.

ويجوي المجلد الحالي كتاب «أعمال جون ومانويل كومينوس» الذي ألفه يوحنا كيناموس، وتكمل مواد هذا الكتاب مواد كتاب الألكسياد لآناكومينا، ولقد تمّ التعريف بالمؤلف وبعمله في المدخل المقبل، وبالإضافة إلى كتاب كيناموس انتزعت ما أورده أوتو أسقف فريزنغ عن الحروب الصليبية في كتابه: «المدينتان» و«أعمال فردريك بربروسا».

ويعدّ أوتو أسقف فريزنغ أعظم المؤرخين الألمان في العصور الوسطى، ثم إنه يتمتع بمكانة قومية ووطنية لدى الألمان، وقد كان عضواً في واحدة من أعظم الأسر الاقطاعية الحاكمة في ألمانيا، فأسرته هي أسرة بابنبرغ Babenberg ، ووالده هو مارغريف ليولد الثالث صاحب النمسا، وكان واحداً من المرشحين لعرش الامبراطورية الغربية أثناء الانتخابات الملكية لعام ١١٢٥، وأمّه هي أغنس ابنة الامبراطور هنري الرابع، وكان زوجها الأول هو فردريك هوهنزتوفن Hohenstaufen دوق سوابيا، وعلى هذا كان أوتو أخاً من جهة الأم لكونراد الثالث وعماً لفردريك بربروسا نفسه، وبذلك كان مؤهلاً ليؤرخ لأيامه وللمرحلة المبكرة من حياة بربروسا.

فلقد ولد أوتو في حوالي سنة ١١١٠، وتوفي عام ١١٥٨، أي قبل سنين طوال من وفاة فردريك بربوسا، وغرقه الأمر الذي مرت أخباره معنا من قبل أثناء التأريخ للحملة الثالثة.

والتحق أوتو منذ سنواته الأولى بالسلك الكهنوتي، وقاده هذا إلى الدراسة في باريس حيث أمضى عدة سنوات هناك، التقى خلالها بكبار علماء عصره ورجال اللاهوت، كما نال بعض الثقافة الفلسفية، ويرجح أنه كان في باريس سنة ١١٢٧ أو ١١٢٨، وقد غادرها سنة ١١٣٣، وتوقف في طريقه في شامبين حيث دخل في سلك كهنة أخوانية دير سيستيرشيان Cistercian ، وصار فيما بعد راعياً لهذا الدير، لكن تظل أهم مرحلة في حياته الكهنوتية، حينما أصبح في سنة ١١٣٧ ومن خلال نفوذ أسرته أسقفاً لمدينة فريزنغ، وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته التي حدثت سنة ١١٥٨ كما أسلفنا أعلاه.

ونبعت شهرة أوتو في ميدان كتابة التاريخ من خلال كتابه «المدينتان»، وهو كتاب أراد أن يؤرخ به للعالم حتى سنة ١١٤٦، وقد جعله في ثمانية أقسام [كتب] وتأثر بكتابه بمثل القديس أوغسطين وكتابه «مدينة الرب»، ومدينة الرب لدى أوغسطين هي روما التي كانت قبل المسيحية مدينة الشيطان، ثم غدت مدينة الرب يحكمها «نائب الرب على الأرض، بابا الكنيسة الكاثوليكية»، وظهرت في حقبة الحروب الصليبية مدينة أخرى هي مدينة القدس السماوية، يضاف إلى هذا أن روما غدت مدينة الرب من خلال الصراع الأبدي بين الخير والشر، فعلى فكرة الصراع هذه دارت فلسفة أوتو التاريخية في كتابه، وهذا هو الذي منحه شهرته في ميدان الفلسفة التاريخية، ومكانته القيادية في هذا الميدان خلال العصور الوسطى الأوروبية ولأن كتابه عن حياة فردريك وأعماله يدخل في فن السيرة والتراجم فقد انعدمت في ثناياه فلسفة الصراع هذه، وجاء بالتالي كتاباً خلواً من المرارة وروح التراجيديا، وأوتو في كتابه

عن فردريك مؤرخ عادي، وليس فيلسوفاً محلقاً حسبها شهدناه من قبل، فهو على هذا يشكل انتكاسة في حياته الفكرية.

ونظراً لوفاة أوتو قبل فردريك، هو على هذا لم يؤرخ لحياته كلها، ومع أنه جرت محاولات لإكمال عمله والتذييل عليه، الهام بالنسبة لنا من كتابيه ماجاء حول الحروب الصليبية، حيث يبدو أن أوتو كان مع كونراد الثالث أثناء الحملة الثانية وترك اخفاق هذه الحملة في نفسه مرارة قاسية جعلته يقلع عن الحديث عن تفاصيلها لاسيما حصارها لدمشق، ثم عن أسباب هذا الاخفاق.

ويوجد في كتابه «المدينتان» مادة مفيدة عن الحملة الصليبية الأولى تعلقت بتفصيل مذكره وليم رئيس أساقفة صور، عن قدوم وفد أرسلته الخلافة الفاطمية للتفاوض، أو بالحري للتحالف مع الفرنجة أثناء حصارهم لأنطاكية، وكانت أهداف هذا التحالف موجهة ضد السلاجقة، ويضيف أوتو خبراً فيه أن وفداً من الفرنجة ذهب إلى القاهرة، ويومى إلى أن من نتائج المباحثات مع هذا الوفد هناك كان تجهيز حملة فاطمية ضد القدس، احتلت المدينة وطردت منها الأتاتقة التركمان، ولاشك أن رجالات الوفد الفرنجي عرفوا أثناء رحلتهم في الذهاب والإياب طرق وأوضاع بلاد الشام، ومصر مع صورة وافية لأوضاع القدس ودفاعاتها، علماً بأن هذه المدينة — كما رأينا — ستسقط بعد أمد وجيز للحملة الأولى، التي تولى رجالها ذبح جميع سكانها.

واليوم وأنا أكتب هذه التوطئة أجدد الشكر للقائد العربي الكبير الرئيس حافظ الأسد، الذي رعى هذا المشروع منذ البداية ووجه محموداً بمتابعة العمل فيه ومن ثم طباعته ونشره.

هناك تشابه كبير بين أوضاع الأمة العربية الآن وأيام الحروب الصليبية، فحين تحاذل من تحاذل وكاع من كاع، وقف ساعة المحنة نور الدين في

دمشق، فكان بارقة الأمل التي مهدت السبل ليزوغ شمس التحرير يوم حطين، وفي يومنا هذا يقف الرئيس الأسد وحده متصدياً للهجمة الشرسة للاستعمار الأمريكي الصهيوني، ويسعى بدون كلل وبعقرية عملاقة لجمع شمل العرب والمسلمين.

إن رجال الفكر في الوطن العربي مع موقف الرئيس الأسد، وكذلك الأحرار في جميع العالم، والعرب والمسلمون الواقفون في ظل رايته لا يأبهون بمواقف الذين غلبتهم شهوة الحكم وحرفهم شبق السلطة، إنهم يقرأون وهم معه قوله تعالى:

﴿قل يا أيها الكافرون. لأعبد ما تعبدون. ولأنتم عابدون ما أعبد. ولأنا عابد ما عبدتم. ولأنتم عابدون ما أعبد. لكم دينكم ولي دين﴾.

التحرير مقبل لا محالة وسيزول العدوان الصهيوني كما زال العدوان الصليبي طال الزمن أم قصر، فالله تعالى وعد هذه الأمة ووعد رسالتها بالحفظ بقوله جلّ وعلا:

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾.

من الله أستمدّ العون، وأنشدّ السداد والتوفيق، وله جلّ شأنه الحمد والشكر والصلاة والسلام على سيد البشر النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وكل من اتخذه مثلاً أعلى له.

سهيل زكار

دمشق ١٠ / ربيع الثاني ١٤١٨

١٤ / آب ١٩٩٧

obeikandi.com

مدخل

تمتع تطور تاريخ الامبراطورية البيزنطية، التي كانت بالنسبة لسكانها امبراطورية رومانية مسيحية، بسلسلة من المؤرخين البارزين، ولقي عصر آل كومنين وآل أنجيلوس ١٠٨١-١٢٠٤ اهتمام ثلاثة من المعاصرين تغطي كتاباتهم المدة بطولها، فبعد موت ألكسيوس الأول (١٠٨١-١١١٨) بأمد كتبت ابنته أنا ملحمة حياته، بكتاب حمل عنوان الألكسياد، بنغمة فيها حرارة وعاطفة قوية تجاه أبيها، وصحيح أنها ركزت الأضواء على انجازات أبيها العسكرية، فقد غطت خلال ذلك جوانب هامة من تقاليد وتفكير الامبراطورية البيزنطية وسلوكها، وقام يوحنا كيناموس بمتابعة التأريخ لبيزنطة من حيث توقفت أنا، فقد خطط لكتابة تاريخ عن حكم جون الثاني [١١١٨-١١٤٣] ومانويل الأول [١١٤٣-١١٨٠]، لكن النص الذي وصلنا يتوقف مع أحداث سنة ١١٧٦، وكتاب كيناموس هو أيضاً كتاب اطراء وتمجيد للامبراطورين، لاسيما لمانويل، ومثل كيناموس بدأ نكيتاس كونياتس روايته منذ وصول جون الثاني إلى الحكم حتى سنة ١٢٠٤ عندما استولى الفرنجة الغربيون على القسطنطينية، ثم أضاف بعض الأخبار حول بعض ما تلا ذلك من أحداث حيث توقف مع سنة ١٢٠٦، وكتابه كتاب ازدراء متصنع للأباطرة الذين عاش في ظلهم، حيث استهدف تحديد الملامة عن مسؤولية سقوط القسطنطينية وانهايار الامبراطورية سنة ١٢٠٤، وكان بحكم كونه مؤرخاً، وشخصيته رئيسية متأماً لما حدث، ومرعوباً من وقع مأساة أيامه، ولذلك كتب بقلم حاد مقيت يشبه أسلوب توسيدس، وكتابه الطويل، الذي يستحق عناية أفضل متوفر في ترجمة ألمانية (١).

لماذا على هذا نقوم بترجمة كيناموس، الذي هو الأدنى مكانة وأهمية بين الثلاثة؟ لأننا بدوننا ستكون معلوماتنا عن التاريخ البيزنطي وعن العقلية البيزنطية هي الأفقر، فبالنسبة للسنوات من ١١١٨ حتى ١١٧٦ يغطي هو ونكيتاس كونيائس الأرضية نفسها، لكن وفق طريقتين مختلفتين كلياً، وهذا واضح وحقيقي بالنسبة لحكم مانويل، الذي وصفه كيناموس بشكل مطول بينما عرضه نكيتاس باختصار، غير أن نكيتاس كشف في كثير من الأحيان أموراً جرت تغطيتها من قبل كيناموس، لذلك لا يمكن قراءة أحدهما دون الآخر.

زد على ماتقدم كان كل من أنا كومينا ونكيتاس شخصين متميزين بثقافتهما التي تفوقت على ثقافة معظم معاصريهما، وكان بالمقابل كيناموس متعلماً بيزنطياً عادياً، فهو قد قرأ بشكل مفيد الكلاسيكيات، وكان متقبلاً بلا جدال للأشكال العامة للعقائد المسيحية، وكانت عقيدته وديانته هي ديانة الامبراطورية والامبراطور: الامبراطورية كمركبة لتوحيد بني البشر، والامبراطور كقائد مختار لأجل شعبه، وجعلت هذه المفاهيم التي شاركه فيها غالبية الناس من عمله عرضاً رئيسياً للبساطة، والفهم المباشر لطبيعة التاريخ وأهدافه حسبها رعاها وتصورها الكتاب البيزنطيون.

وولد كيناموس حسبنا ذكر مراراً بعد وفاة الامبراطور جون الثاني في نيسان ١١٤٣، لكن كما يبدو ليس بعد هذا التاريخ بوقت طويل (٢)، وفي الوقت الذي لانعرف فيه شيئاً عن أسرته، غير:

كان باسيل كيناموس أسقفاً لبافوس في قبرص عام ١١٦٥ وبعد ذلك (٣)، ويبدو أنه تدرّب منذ صغره على أساليب البلاغة، مما يعكس تأثير ونفوذ نقفور باسيكلس عليه، وكان هذا من الخطباء المشهورين، وربما كان أستاذه (٤)، ويؤكد عنوان تاريخ كيناموس أنه كان من

العاملين في البلاط الامبراطوري (٥)، وبذلك كان واحداً من مجموعة كبيرة من الكتّاب الذين ارتبطوا بالبلاط الامبراطوري وبشخص الامبراطور، واستخدم هؤلاء أحياناً في مهام دبلوماسية أو أرسلوا لمرافقة بعض الجيوش (٦)، ويبدو أن بعض العاملين من هؤلاء، مثل نكيتاس كونياتس، قد ميزوا أنفسهم، وتمكنوا من الارتقاء إلى مراكز عالية في الادارة الاقليمية أو المركزية، لكن يبدو أن كيناموس لم يفعل ذلك، وقد ذكر أنه دخل في خدمة مانويل منذ أن كان صبياً: «حتى قبل أن أصبح يافعاً، رافقت عدداً من حملاته في كل من القارتين» (٧)، ونستخلص من اهتماماته العسكرية ومن القليل الذي نعرفه عن حياته، أنه قضى معظم عمره خلال حقبة حكم مانويل مع الجند (٨)، ومن المحتمل أنه شارك في الحملة الايطالية لعامي ١١٥٥-١١٥٦، فوصفه لها فيه حيوية، وتحديداته الجغرافية دقيقة تماماً، مع أنه كان آنذاك — كما يبدو — لم يتجاوز الاثنتي عشر سنة (٩)، ومثل هذا لدى حكايته أخبار السفارة التي أرسلت إلى روما عام ١١٥٧، فهنا قدم لنا بشكل مفاجيء معلومات لا مثيل لها عن سياسات مدينة روما، وعن ممارسة البابوية لأعمال الحرمان (الذي كان غير معروف في الكنيسة الشرقية) وأيضاً عن سياسة الرسل البيزنطيين، فلو لم يكن حاضراً، لما امتلك مثل هذه المعلومات الهامة، وقد غداً أخيراً قريباً من الامبراطور إلى حد أنه — كما قال — تناقش معه حول قضايا من فلسفة أرسطو (١٠).

وكانت المناسبة الأولى التي ذكر أنه كان شاهد عيان فيها هي في عام ١١٦٥ لدى حصار مانويل لزيغمنون (زيمون الحالية) في يوغوسلافيا (١١)، ولدى جمعنا مابين نصين منقولين عنه نتوصل إلى أن كيناموس كان حاضراً سنة ١١٧٦ معركة ميريوكيفالون - Myriokhalon المأساوية، فقد حكى النص الأول شكوك كيناموس بشأن اقدام مانويل في المعركة:

«حتى وصلت حقائق الأمر إلى ادراكي، لأنه صدف أن كنت وسط العدو مطوقاً من قبله، أراقب عن قرب مقاومة الامبراطور لفرقة تركية كاملة، لكن التاريخ سيصف هذا في الوقت المناسب» (١٢)، ثم قال فيما بعد: «لأنه بعد كثير من السنين أصبح قلج أرسلان لايعبأ بارتباطاته نحو الامبراطور، وقد جعل هذا الرومان يقاتلون الترك بكامل القوات، وصدف أن وقع الجيش في منطقة صعبة، وفقد كثيراً من الأعيان، واقترب من المعاناة من مأساة عظيمة، لولا أن الامبراطور شوهد هناك أنه تفوق في فن الحرب وتجاوز البراعة البشرية، لكن كما سلف وقلت: هذه الأمور ستتم حكايتها فيما بعد من قبلي» (١٣)، ومما لاشك فيه أن النص الأخير يومي إلى ميريوكيفالون، والإحالة فيه تشير فقط إلى النص المتقدم، الذي ورد قبل عدة صفحات، ويبدو أن كيناموس كان واحداً من حفنة الرجال الذين نجوا من المأساة، والمؤسف أن نص تاريخه كما وصلنا ينقطع عند بداية الحملة قبل تلك المعركة.

وكانت المحطة التالية في حياة كيناموس مرتبطة عن قرب بتصنيف تاريخه، فقد كتب بعد موت مانويل يقول: «لقد هلك مخلصاً الامبراطورية إلى ولد في سن المراهقة» وأشار فيما بعد إلى ولادة هذا الوريث، أعني ألكسيوس الثاني بعبارات مسايرة محكرة، ووعده بتقديم وصف شامل له في اللحظة المناسبة (١٤)، وقدم رواية فيها اطراء زائد عن العلاقات بين لويس السابع ومانويل أثناء الحملة الصليبية الثانية، وهي رواية تجاهلت عدداً كبيراً من نقاط الخلاف والصراع بين الحاكمين (١٥)، ومن الممكن فهم هذه المعاملة عندما يقيم المرء التقدير لحقيقة أن لويس كان هو ألكسيوس الثاني، هذا ولم يول كيناموس أسرة أنجيلوس المدح بشكل منفرد، وفي الحقيقة وصف قسطنطين أنجيلوس جد الأباطرة المقبلين بعدم الكفاءة بسبب فقدانه أسطولاً أمام النورمان (١٦)، وتلقى أندرونيكوس كومينوس معاملة فيها بعض التناقض: فقد تولى وصف

كراهيته الشديدة لمانويل وخيانتة له بالتفصيل، لكن نجاته ببراعة من السجن نال اعجاب كيناموس، فهو لم يمدحه ولم يطريه وكأنه الامبراطور الحالي، ولم يشتمه على أنه طاغية ساقط، بل قدمه بمثابة منافس خطير للأسرة الحاكمة (١٧)، وتشير هذه التفاصيل جميعها إلى الحقبة فيما بين أيلول ١١٨٠ إلى نيسان ١١٨٢، وإلى وصاية ماري - اكسينا مع ألكسيوس كومينوس - البروتوسيباستوس - على الصبي ألكسيوس الثاني، وهي الحقبة التي صنف فيها كيناموس تاريخه، فوقتها كان ألكسيوس الثاني مازال حياً، وقد تلقت أمه تقديراً كبيراً، ثم عدّ أندرونيكوس عدواً خطيراً، ولم يكن نائباً للامبراطور أو امبراطوراً، فأسرة أنجيلوس لم تكن قد اعتلت العرش بعد (١٨).

لكن لماذا اختار كيناموس هذا الوقت للكتابة، هذا ما يمكن استخراجه من بعض التفاصيل في تاريخه، فلقد كان هو شخصياً شديد العداء للاتين، ونادراً ماترك فرصة دون أن يهاجمهم، وهناك استثناء واحد هو ريموند أوف بواتيه ولويس السابع اللذان كانا الجد ثم الحمو لألكسيوس الثاني، ونال الألمان كونراد الثالث وفرديريك بربروسا، والبنادقة والبابوية كل نصيبه من الشتائم، اللهم باستثناء بعض المناسبات عندما كان يصدف عملهم بالتوافق مع ارادة الامبراطور، حسب تعابير كيناموس، وكانت هيئة الوصاية على العرش، من جهة أخرى تؤثر اللاتين إلى أبعد الحدود، وموقف كيناموس العدواني من هؤلاء يومي بأنه أرغم على الانسحاب من الخدمة العامة، وهذا الافتراض يعلل اشارته في مطلع كتابه إلى متعته وراجته لكتابة التاريخ حيث قال:

«الفرصة المناسبة حالياً» (١٩)، ويعلل هذا أيضاً عدم تمكنه من الوصول إلى الوثائق الرسمية (أو على الأقل عدم تمكنه من استخدامها) أثناء كتابته (٢٠)، ثم حين حاول كيناموس اطراء الأسرة الحاكمة، كان

يسعى لاستعادة اللحظة الامبراطورية ونيل مكان في الحكومة.

وأخر مرة نلمح فيها كيناموس تؤكد هذا الرأي فيما يتعلق بتاريخ تصنيف الكتاب، فقد رآه نكيتاس كونياتس في ربيع ١١٨٤ يتناقش باللاهوت مع يوثيميوس مالاكس مطران نيا—باتري Neai-Patrai في خيمة الامبراطور في لوباديون، وكان وقتها أندرونيكوس كومينوس هو الامبراطور، وقد هدّد المتجادلين برميها بالنهر إذا لم يتوقفا (٢١)، ويفيد هذا أن كيناموس قد استرجع مكانه في الادارة، وكسب ثقة الامبراطور، ورافقه في حملته ضد الثوار في بيثينيا، وكان يتردد على الخيمة الامبراطورية، ويبدو أن مواقفه العدوانية ضد اللاتين وطرده من قبل الوصاة على العرش قد ساعده ليتم تقبله من قبل معتصب العرش.

ومعرفتنا عن نهاية مصيره بعض الشيء أكثر وضوحاً، فقد عاش حتى سقوط أندرونيكوس (أيلول ١١٨٥)، وقد ألقى خطاباً—هو مفقود الآن— أمام واحد من أباطرة الأنجيلوسيين (٢٢)، ومع هذا يبدو أن الحاكم أرغمه الآن على التقاعد أو العيش في أحد الأديرة.

ومصادر كيناموس بعيدة عن الوضوح، فهو لم ينقل ولا وثيقة امبراطورية، مع أنه كان يعرف محتوى بعض هذه الوثائق، كما أنه لم يدون أخبار ومناقشات أياً من المجامع اللاهوتية (٢٣)، وذكر نكيتاس، الذي عالج الحقبة نفسها، أنه استعان بروايات شفوية استقاها من بعض الذين كانوا أحياء، وشاركوا في حروب الامبراطور، ولقد أشار كيناموس إلى مصاعب الكتابة حول تلك الحقبة، لذلك عزم أن يقدم عرضاً عاماً فقط «بشكل مختصر وكأنه موجز، لأنني كما ذكرت، لم أكن موجوداً في تلك الأوقات» (٢٤).

وقال في مكان آخر، فيما يتعلق باحتلال جون لكليكية: «لكن أن ندون هذه القضايا بالتفصيل، فأمر يتجاوز—كما أعتقد— مهمتنا

الحالية، فلقد كانت غايتي هي الحديث حول الأحداث التي نحن بصددتها باختصار، لأنني لم أكن شاهد عيان لهم، كما أنني لم أتسلم رواية موثوقة حولهم» (٢٥)، ومن المؤكد أنه استقى مواد الأساسية من مصادر شفوية حصل عليها من بعض الأفراد، لكن يبدو أنه من سنة ١١٥٥ فصاعداً قد اعتمد على ملاحظاته، ثم إنه من الممكن أحياناً تعقب مصدره من ذلك مثلاً: كان جون كومينوس البروتوفستيارويس والبروتوسيستوز منذ زمن مصدره فيما يتعلق بمؤامرات أندرونيكوس ضد الامبراطور في بيلاغونيا (حوالي سنة ١١٥٤) (٢٦)، وربما أعطاه جون كاتاكوزينوس روايته حول الصراع مع الصرب والهنغار على درينا وتارا، وكان جون دوقاس مصدره عن الحملة الايطالية (إن لم يكن كيناموس نفسه قد شارك فيها)، ومايكل براناس عن الحملة لاسترداد سيرميون (٢٧).

وذكرت أناكومينا انها استطاعت أن تدون أخبارها ببساطة عظيمة وبدون تصنع اعتماداً على واحد كان من عساكر والدها، كان قد تقاعد فيما بعد في أحد الأديرة (٢٨)، ويمكن للمرء أن يغري بالتفكير بوجود روايات مشابهة أقحمت داخل كتاب كيناموس، وسيكون على رأس الاحتمالات رواية حول هجوم مانويل في ١١٤٦ على قونية، والنتيجة المأساوية والتراجع (٢٩)، فهذه أول رواية طويلة متواصلة حواها كتاب كيناموس، والمعلومات الجغرافية هنا صحيحة بشكل مدهش، تساعد على إعادة بناء تفاصيل معظم الطريق، وما من شخص هنا واضح أنه «البطل» (وربما المطلع) غير الامبراطور، هذا من جانب ومن جانب آخر كان سوء قيادة الجيش البيزنطي أثناء التراجع قاسياً (وهو بالنسبة لكيناموس قريب بشكل فريد) ومجرداً، وتوحي هذه المزايا أن الرواية اعتمدت على واحد من ضباط الجيش المحترفين، ممن كانت رتبته دون رتب الأرسقراطية، وربما جاءت روايته عن الحملة الصليبية الثانية من

المصدر نفسه أو من مصدر مشابه (٣٠).

ومع هذا لقد جمع كيناموس الكتلة العظمى من مادة تاريخه مما رآه ولاحظه ومن روايات شهود عيان.

وكان كيناموس مثل غيره من المثقفين العلمانيين البيزنطيين قد عرف واستفاد من كتابات الكتّاب الكلاسيكيين الاغريق، فقد أشار في مطلع كتابه إلى ماكتبه اكرنفون عن تربية قورش، وأناباسيس، وربما إلى هيروdot، زد على هذا هناك ايماءات استغلها هذا الكاتب واستفاد منها (٣١)، ففي إحدى النقاط نشعر بوجود أصداء لتوسيدس وذلك في قوله: «لقد انتهت السنة بعدما أحدثت هذا التغيير» (٣٢)، ويبدو أن بروكويوس قد زوده بنمطه الأدبي، وعنه نقل رواية حول رومولوس أعطستولوس، وأودوفاكار، وثيرودورك (٣٣)، ومن الممكن أن نتلمس بشيء من الضبابية آثار بعض الكتّاب الآخرين مثل بلوتارخ أو أريان، وليبانوس (٣٤) خلف صفحاته، وعلى كل حال لا يمكن مقارنة كيناموس مع أناكومينا بالنسبة لسعته الثقافية والقراءة لكتابات الكتّاب القدماء، ولا حتى بنكيتاس، ذلك أن هذا تمثل كتاباتهم واستطاع بعد ذلك صنع أسلوب خاص به.

وبشكل عام ومقارنة له ببقية الكتّاب البيزنطيين الذين كتبوا بالتاريخ نلاحظ أنه بذل جهده لتغليف مواده وتمويهها بثوب قديم، وهكذا كان كلما استطاع يعطي شعوب العصور الوسطى أسماء قديمة، فلقد أطلق على جميع شعوب الدول الاسلامية في المشرق «الفرس»، وعلى القبائل المنتشرة من شمال البحر الأسود اسم «السكيزيين»، أما الهنغار فكانوا إما «بانونيين» (من هيروdot) أو «هون» (من برسكوس وبروكويوس) ومزج بعض الأسماء فدعا الفرنسيين باسم «الجيرمان» والجيرمان باسم «ألمانيو» (٣٥)، وكان البيزنطيون عنده دوماً «رومان» اللهم إلا في بعض

المناسبات النادرة، عند الإشارة إلى سكان العاصمة، ويعكس هذا الاستخدام أصالة الشعور القومي بالهوية الرومانية التي آمن بها الشعب البيزنطي، فهم حتى بالاغريقية الشفوية «رومانيو».

وأخيراً استعار من توسيدس اختراع «الكلام الزائف» و«الرسالة المصطنعة»، فما من واحدة من الرسائل التي نقلها كيناموس يمكن عدّها أكثر من مجرد تركيب صنعه هو، وتختلف الوثائق الأصيلة التي وصلتنا (خاصة المراسلات فيما بين البيزنطيين والحكام الألمان) بمحتواها عما ادعاه كيناموس ورواه (٣٦)، والأفكار التي وردت لدى توسيدس وتصورها بمثابة مقدمات لتأتي في بداية مناقشات بعض الفرقاء قد انحدرت لدى كيناموس وتشوهت إلى عبارات مثل: «بضع كلمات مناسبة» و«تمارين طفل مدرسة ومسرح خطابات»، وأكثر الكلام احكاماً بالصنعة ذلك الذي وضع في فم جون الثاني وهو على فراش الموت، وهو الأكثر زيفاً، علماً بأن كيناموس كان في هذا المقام ضحية مؤامرة استهدفت اخفاء الحقائق المتعلقة بوفاة جون (٣٧)، هذا وينبغي ألا يغيب عنا أن مثل هذه الخطابات والرسائل المصطنعة غالباً ما جرى استخدامها لتغطية عملية انسحاب بيزنطية أو هزيمة (٣٨).

وبعيداً عن الخطابات والرسائل جاء أسلوب كيناموس على العموم أسلوباً واضحاً ومباشراً، وهذا هام بالنسبة لكاتب بيزنطي، ونادراً ما جاءت تراكييه متداخلة، وجمله بالعادة جمل قصيرة، ومفرداته ليست غير اعتيادية خالية من التشدق، وهذه السمات التي تجعله مقبولاً بالنسبة للقارئ المعاصر، قد نظر إليها على أنها علامات تدل على نقص الثقافة من قبل أبناء جلدته من الكتاب البيزنطيين، فاستخدام الأساليب المحكمة والمعقدة مع القدر الأكبر من الكلمات الكلاسيكية هو السمة التي تميزها الكتاب الأعلى ثقافة من معاصري كيناموس مثل نكيتاس كونيئاتس ويوتاثيوس السالونيككي، ونتيجة لهذا وجدنا أن روايته ما ان

وصلت حكم مانويل حتى تدفقت بسرعة لكن بنعومة غالبية، وكان قادراً على تقديم بعض المشاهد المشرقة والحية، من ذلك مثلاً: التراجع البيزنطي من قونية، والمعركة مع رتشارد أوف أندريا، والساحرة العجوز أثناء حصار زيمون (٣٩)، ولقد وصف براءة أندرونيكوس كومينوس، على أنه كان رجلاً صاحب قدرات عظيمة، وقد دُمّر بطموحه غير المستقر، وكراهيته الموروثة لمانويل، وشروره الشخصية التي لا يمكن التخلص منها (٤٠).

وبالنسبة للقارئ المعاصر تشوه أسلوبه بمبالغته في مدح مانويل كومينوس ويدل حديته عن كل سمة من سمات مانويل مثل: شجاعته واقدامه في الحرب، وعبقريته في تصور وإدراك الأوضاع الاستراتيجية للأعداء، وفروسيته، وبراعته في ميدان الطب، وثقافته العالية، ان هذا كله دفع كيناموس إلى إعجاب هائل به، وحماس منقطع النظير نحوه، وليس لما ادعاه من أنه كان يقوم فقط برواية أشياء رآها بنفسه أو رويت موثوقة له جاذبية، ومع أنه لاشك هناك بعض الحقيقة قائمة وراء رواياته عن انجازات مانويل —شابه الامبراطور الفرسان الغربيين في سعيهم نحو المبارزات الفردية وإظهار براعتهم وإقدامهم— إن الحقائق التي ليست لصالح مانويل هي الطاغية، لاسيما وأن نتائج مؤامرات البلاط، وأخبار الدسائس والانتقامات، لم تتم روايتها بطريقة معادية لمانويل، فعلى سبيل المثال وتبعاً لنكيتاس إن التهم حول محاولة اغتصاب العرش التي أثرت ضد ألكسيوس اكسوكوس كانت كلها زائفة (٤١)، وعلى هذا إن تاريخ نكيتاس كونياتس وسيلة ثمينة لتصحيح روايات كيناموس.

ولم يشكل كيناموس، على كل حال، في أعمال اطرائه ومدحيه، حالة استثنائية، فقد كان بكل بساطة يعمل في نطاق تقاليد مقبولة بالنسبة لأدب التاريخ والبلاط، ولأبأس هنا بعرض بعض الأمثلة القليلة من كتابات سلفه المباشرين، فقد ختم ميخائيل بزلوس تاريخه المشهور

بمديح طويل لميخائيل السابع دوقاس، ووجه ميخائيل أتالياتس تاريخه وأهداه إلى نقفور الثالث بوتانياتس، لابل حتى أقحم فيه رواية ناشزة حول الاستيلاء على كريت من قبل بوتانياتس الذي زعم أنه جد لنقفور الثاني فوقاس، ولقد كتب كل من نقفور برينيوس وأناكومينا لتمجيد ألكسيوس الأول (٤٢)، فلقد كانت خطابات المعلمين وأعمال الاطراء للحاكم المتسلط، جزءاً من الرسوم الاحتفالية للبلاط البيزنطي، ولقد كان جميع الأشخاص ذوي الثقافة العالية قادرين على كتابتهم، ولم يكن هناك من حاجة لا إلى الاخلاص ولا إلى الصدق في انشاء هذه الخطابات، ونكيتاس المعاصر كان في خطابه معاكساً تماماً وبشدة لما ضمنه في تاريخه الذي صنفه فيما بعد (٤٣)، وبالنسبة لكيناموس لم تكن مقاطع المديح هامة فقط بل أساسية لمقاصد كتابه، وذلك بسبب أملة باستعادة الخطوة ونيل وظيفة، وكانت اعلاناته المتكررة عن ايجابيته هي مجرد كلام للزينة ووسائل رخيصة (٤٤).

وتاريخ كيناموس بعيد عن الكمال، ولقد اتبع بالعادة خطأً زمنياً متتابعاً بشكل معقول، ونجم عن هذا في بعض الحالات تغييرات سريعة في المشاهد الجغرافية، واقحام مواد لاعلاقة لها بالموضوع أو شطائر من التاريخ اللاهوتي، وقادته في بعض الأحيان ضرورة تقديم خلفية، والميل لمتابعة التعايش مع بعض الأفكار، إلى تبدلات وتلونات لانهاية لها، ففي إحدى المرات، وبمناسبة حديثه عن ابرام معاهدة مع هنغاريا (١١٥٣) أشار كيناموس ضمن أربع جمل أو خمس، إلى حرب أثيرت (١١٥٤-١١٥٥) بسبب أعمال أندرونيكوس التأميرية، وإلى ارسال أندرونيكوس «في ذلك الحين» (١١٥٢) إلى كليكية لإخماد ثورة طوروس، ثم إلى هرب الأخير من القسطنطينية (حوالي ١١٥٤)، والنشاطات التالية في كليكية، وكان أندرونيكوس — على كل حال — قد اصطحب معه القيصر جون روجر، الذي كان مرشحاً لخطبة كونستانس صاحبة

أنطاكية، وهنا جرى عرض أسباب ترملها (١١٤٩) بأسهاب، وعادت الحكاية بعد عدة صفحات تالية إلى أندرونيكوس في كليكية (١١٥٢)، وكان الرابط هنا بين هذا كله شخصية أندرونيكوس وضرورة تقديم ملخص عن حياته، غير أن كيناموس لم يكن يخشى من التعقيب والتذليل (٤٥).

وكان من الممكن لهذه الفوضى أن تتلطف بعض الشيء، لو أن كيناموس قام بمراجعة عمله، كما يفترض أنه نوى ذلك، وتنقطع المخطوطة الفريدة لهذا الكتاب والتي وصلتنا من العصور الوسطى في نهاية الوجه الخلفي للورقة وسط إحدى الجمل، ويبدأ وجه الورقة التالية بكتاب آخر، ومن غير المعروف فيما إذا كان المؤرخ قد أكمل كتابه، أو أن هناك بعض الأوراق مفقودة من المخطوطة، أو أن الناسخ تعب من عمله فتوقف هنا (٤٦)، والبينة الرئيسية حول عدم قيام كيناموس بمراجعة عمله، هو توفر عدد من الاحالات مثل قوله:

«كما قلنا في الغالب» أو عبارة مشابهة، وعدم توفر الصفحات المحال عليها أو النصوص المشار إليها، ومن أهم الأمثلة الصارخة على هذا ذكره للزواج الذي تمّ سنة ١١٤٨ بين ثيودورا ابنة أخي الامبراطور وهنري صاحب النمسا، فقد أسقطت هذه الرواية من مكانها الصحيح من قبل كيناموس (٤٧)، ولدى جمع هذه العيوب مع بداية عنوان النص وهو «ملخص للمتواليات.....» الذي يعكس بدوره العنوان اللاتيني الذي أعطاه المحقق وهو «ملخص للأعمال.....» يؤكد أول تلميذ لكيناموس أن النص المتوفر حالياً هو مختصر تولاه أحدهم في وقت تال، ولم يعد هذا الرأي مقبولاً الآن:

ذلك أن المتولي للاختصار كان من المفترض أن يقوم بحذف المواد الخطابية الفائضة، بينما في حال وجود عيب الاحالات، هذا يمكن

تعليه بأن المصنف أخفق في مراجعة نصه أي لم يقم بذلك، وبرهان آخر على أن كيناموس قد ترك كتابه ناقصاً هو الطبيعة الاختصاصية المتوالية لأجزاء الأخبار المتعلقة بما نويل في عقد سنواته الأخيرة، وتعطي هذه الصفحات الانطباع بوجود ملاحظات كانت تنتظر عناية المؤلف وانتباهه في النهاية (٤٨).

وتأكد لدينا بشكل غير مباشر أن الكتاب لم ينشر من خلال إعلان نكيتاس كونيائس في مطلع كتابه أن ما من مؤرخ سواه قام بتغطية هذه الحقبة منذ وفاة ألكسيوس الأول (٤٩)، ومع هذا من المؤكد أن نكيتاس استفاد شخصياً من كتاب كيناموس (٥٠) واستقى منه، ولا بد أن نجد تعليل هذا الأمر في حقيقة أن الكتاب لم يهتم وبالتالي لم ينشر، ولم يتداول خارج وسط طائفة العاملين في البلاط الملكي، وطبعاً كلاهما انتمى إلى هذه الطائفة نفسها.

وجرى نسخ أصل النص في القرن الثالث عشر، وهكذا بقي لنا ووصلنا، وتفيد الإشارة هنا إلى أن عدداً كبيراً من كتابات مؤرخي تلك الحقبة كادت أن تضيع، فلقد وصلتنا نسخة وحيدة من تاريخ بزلوس، ونسختان (كلاهما من القرن الثاني عشر) فقط من النص الكامل لكتاب الألكسياد هما اللتان عاشتا حتى العصر الحديث (٥١)، ولدى عقد مقارنة بين كتابات المؤلفين الاغريق الكلاسيكيين وكتابات المؤرخين البيزنطيين، نجد أن نتاج البيزنطيين كانت له قيمة قليلة في أعين باعة الكتب والنساخ، وكانت نسخة تاريخ كيناموس العائدة للقرن الثالث عشر موجودة في القسطنطينية عام ١٤٥٣، وقد وصلت بشكل ما إلى مكتبة الفاتيكان، حيث هي الآن، وقد أخذت عنها نسخة في القرن السادس عشر، ثم ثلاث نسخ أخرى في القرن السابع عشر، وقام اسحق فوسيوس بنسخ إحدى هذه الثلاث، وهذه استخدمها كورنيليوس توليوس أساساً لأول طبعة للكتاب في أوترخت عام ١٦٥٢، مع نص

لاتيني مرافق، وقام الاختصاصي العظيم بالبيزنطيات شارل دي فرزن
Sieur Du Cange بنشر طبعة أخرى في باريس عام ١٦٧٠
مع ترجمة لاتينية جديدة، وحواشي ماتزال هامة، وبالنسبة لطبعة أ. مينك
التي نشرت في بون عام ١٨٣٦، فقد اعتمد على الطبعتين القديمتين مع
نسخة عن مخطوطة الفاتيكان أعدها ثيودور هاس، ويبقى إن هناك
حاجات أساسية لإعادة نشر هذا الكتاب من قبل الاختصاصيين
بالبيزنطيات (٥٢).

obeikandi.com

obeikandi.com

مختصر عن نجاحات الامبراطور الأخير والبروفيروغنتوس المولى يوحنا كومينوس، ووصف لأعمال ابنه الشهير الامبراطور والبرفيروغنتوس المولى مانويل كومينوس. [كتبت من قبل السكرتير الامبراطوري يوحنا كيناموس].

الكتاب الأول من التواريخ

١- لم ينظر إلى كتابة التاريخ انه عمل غير مشرف من قبل القدماء الذين كانوا حكماء، فعدد كبير منهم حصلوا على تقدير كبير لعملهم بالتاريخ، ويذكر انسان في التاريخ أعمال الهيلينيين، ويصف آخر تدريبات قورش منذ طفولته، والأعمال التي أنجزها عندما بلغ مرحلة الرجولة.

وهناك خطر ان ماكشف عنه في وقت ما قد يتعرض للإخفاء ثانية، لكن الرجال الذين دونوا الأشياء في الكتب، كما لوأنها نقشت على أعمدة لن تفتى، منحوها حياة مستمرة، ومن هذا القبيل العمل الحالي.

وإنني أرى أن هذه الأعمال هي ليست مما لا يستحق القيام به أبداً، وهذه الأعمال يتوجب تزويدها بشكل جيد بالمعلومات عن الوقائع الفردية، وكقاعدة عامة ينبغي عزل ذلك عن القضايا الوثيقة الصلة بهذه الحياة، وما من شيء من هذه الأمور، التي أراها ضرورية، يمكن الأخذ بها بالنسبة لنا، ومع هذا، ينبغي لذلك ألا نلتزم بالصمت حيال الوقائع التي حدثت في أيامنا، وبالبحري طالما توفرت فرصة مناسبة أمامنا، علينا